

سلسلة الأسرار الإسلامية



إعداد
محمد علي قطب

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

شركة أبناء شريف الأنصاري

فروعها المكتبة العصرية
الدار النموذجية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - صيدا - ص.ب ٢٢١

تلكس: 20437LE - 29198LE SCS

بسم الله الرحمن الرحيم

[إنه خَيال امرأةٍ. . .
تمضي وحيدةً في الصّحراء. . .
فوق ناقةٍ لها. . .
قد حملت تحْت ضفيرتها سِرّاً خطيراً. . .
فيه رائحة الخيانة والنّفاق. . .
فما هو هذا السِّر؟
ومن هي المرأة؟
وإلى أين كانت تمضي؟
تعال معي ـ يا ولدي العزيز لنكتشف السِّر،
ونعرف الحقيقة. . .]

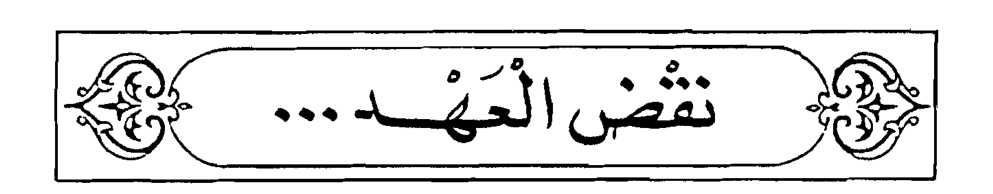
وعند أطْراف «المدينة المنوّرة» تتابعت حلقاتُ مُسَلْسَل [السِّر تَحْت الشعر]. . !

ولكن كان لها مقدّمات، أسْماء لامعة وأشخاص

بـارزة، وأحْداث ووقـائع هـامة. . .، ثُمَّ نتـائـج أكثـر أهميّـةً. . .، منهـا على سبيـل المثـال: نَقْض «صُلْح الْحُديْبية». . . و «فتح مكة».

ولم يكن نقْض الصّلْح من جانب المسلمين!!! إذ كـانُوا ـ بقيـادة رَسول الله «ﷺ» أشَـدّ حرْصـاً، وأكْثر الْتـزاماً. . .، لكنّـه كان من جهـة «قُـرَيْش». والـذين دَخَلُوا في حِلْفها؛ كان من «بني بكْر» الذين عَدَوْا على «بني خُـزاعة» المتحـالفين مـع رسُـول الله «ﷺ» عنـد أطْـراف «مكـة». . .، وأوْقعـوا بِهِم. . .، وقَتَلوا منهُم خلْقاً كثيراً، وبمساعدة «قُرَيْشُ». عندهـا اجتمع «بنـو خُزاعة» ليتدبَّروا أمْرهم.





نقض العهد...

ـ وماذا في نيَّتِك أنْ تفعل يا «عمرو»؟ فأجاب «عمرو بن سالم» سائله:

ـ غداً نَمْضي إلى «محمد» في «يثرب» ونبْلِغُهُ ما فعلتْهُ بنا «بنو بكْر»، ومساعدة «قريش» لهم بالمال والسّلاح... وكيْف نَقَضُوا جميعاً عَهْد الحُدَيْبِيَة...!

وقال ثالثٌ:

ـ وهل تراهُ يُنْجدنا وينْصرنا ويخفّف وقع المصاب علينا؟ وكيْف...؟ إن القتْل قد استشرى فينا، وكثرت جراحاتُنا... وتكاثروا علينا حتى أَلْجأُونا إلى الْحَرَم... فنحن في موقف صعْب لا نُحْسدُ عَلَيْه...!! فآلتفت إليه «عمرو» وقال:

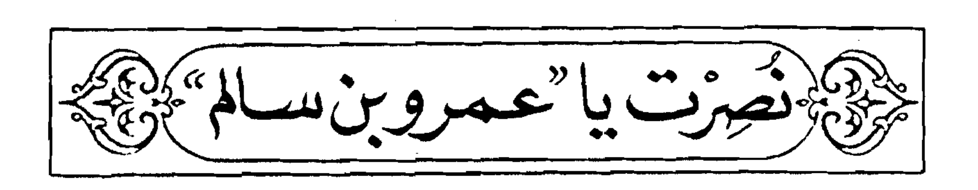
ـ نَفْعل ما يجب فِعله، فَنَحْن «بنو خُزاعة» خُلفاءُ «بني هاشم» منذ الْقِدَم، ولقد دخلنا بعد «الحديبية» في

عَهْـد «محمد». . . ، وهُـو كما تعْـرفُون صـاحب ذِمّـةٍ ووفاء. . .

جـرى هذا الحـوار في خباء «عمـرو بن سـالم» - الخـزاعي - ، سيِّد القـوْم ورأْسهم، وصاحب الكلمـة المسموعة فيهم. . .

وذلـك إثْـر آنقضـاض «بني بكْـر» عليهم بسبب خـلافٍ على المـرْعى، وكـان «بنُـو بكْـر» حُلفـاء لـ «قـريش»؛ فساعَـدَتْهُم «قريش» وأمـدَّتْهُم بالمـال. . . والسِّلاح. . . ولوْلا الفضيحة وكشْف السّتْر لشاركتْ في القتال. . . هكذا تصَوّروا الأَمْر!!!

وقد ظنّت «قُريْش»» أنها لم تَغْدر. . . ولم تنقض العهْـد. . . ، وأنّ المـوضـوع سيبْقى سِـرّاً وفي طيٍّ الكتْمان. . . ، لكن خاب فألها وآفتضح أمْرها،



وعَقَلَ «عمرو» ومَنْ معه من «بني خُزاعة» رواحِلَهم خارج المسجد، وَدَخَلُوا على رسول الله «ﷺ» في مُصلاَه. . . ، وكان حوْله طائفةٌ من كبار الصّحابة!

وكان «الخزاعيّون» بِضْعَةُ أَنْفار، عَلَيْهم سيماءُ الْجُهْد والتَّعب، قد خَطَّت الأحْداث المأْساوية الأخيرة على وجوههم، في عيونهم وجباههم. . . ، علامات الحزْن والْفَجيعة. . .

وقام «عمرو» بَيْن يدي رسُول الله «ﷺ» ينشد ويروي:

يا ربُّ إني ناشِدٌ «محمداً»
حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلدا
قد كُنتم ولْداً وكُنّا والدا
ثمّة أَسْلَمْنا فَلَمْ نَنْزع يدا

أَأنْصُر هداك الله نصراً أعتدا
وآدع عِبادَ الله يأْتوا مَدَداً
فيهم رسُول الله قد تجرّدا
إن سيمَ خَسْفاً وجهه تربّدا
في فيْلق كالبَحْر مُزْبدا
إنّ قُرَيشاً أَخْلَفُوك الموْعِدا
وَنَقَضُوا ميثاقك المؤكّدّا
وجعلوا لي في «كداءٍ» رصدا
وزعَمُوا أن لستُ أدْعو أحداً
وهُمْ أَذلُّ وأقلّ عددا
هم بَيَّتَوُنا بالوتير هجّداً
وقتّلونا رُكَّعاً وسُجّداً

كان أكثر السامعين يتململ...
يَتَحفّز... ويتوثّب...، يغلي الدَّم في عُرُوقهم، ويظهر غَضَبُ الثَّأْر في عُيُونهم...

إلاّ رسُول الله «ﷺ» فقد كان يَسْتمع وهو مطرق الرَّأْس، حتى إذا ما انتهى «عمرو» من إنشاده، رفع

رسُول الله «ﷺ» رَأْسَهُ الشريفة وقال:

- [نُصِرْتَ يا «عمرو بن سالم» نُصِرْتَ. .].

ولم يَزِدْ على ما قال حَرْفاً واحداً. . .

وآنفضّ الجمْع!!



قُبِّحْتَ من سفير قَوْم!

هذا ما كان من شَأْنِ «خُزاعَة» عند رسُول الله «ﷺ» في «المدينة المنورة»، أما قُـرَيْش» . . . فإِنَّهُم شعـروا ولكن بعْد فوات الأَوان ـ أنهم قد تَوَرَّطوا مع حلفائهم «بني بكْر» . . .

فـاجتمعُـوا في دار النَّـدْوة يتشـاورون، لِيَـروْا رأْيهم . . . ويتّخذوا قرارهم.

كان الأرهاط من قريش قد ماتُوا في «بدْر»، أمثال «أبي جَهْـل» و «عتبـة بن ربيعـة» و «أُميّـة بن خلفٍ» وغيـرهم، ولقـد وَرِثَ «أبـو سفيـان» . ـ «صخـر بن حرب بن أميّة»ـ، الزعامة والقيادة . . .

أما الشباب من المجتمعين في دار الندوة فقد آثروا أنْ يَسْتمروا في نَقض العهْد، غير مبالين بالنتائـج . . . مهما كانت، وذلك بدافع من حماسهم . . .

لكنّ «أبا سفيان» كان يرى أن آستمرار الصُّلْح أفْضل وأحْسن... وأضمن...

قَضَوْا وقْتاً في التَّشاور، وأخيراً آستقرَّ الرأْيُ على ما ذهب إليه «أبو سفيان»، ورضَخَ الشبّاب المتحمّس لرأْيه، وآنتدبوه ليقوم بمهمة السفر إلى «يثْرب»، ولقاء «محمد» وتوْكيد العهْد...



في دار أبي سُفيان

قالت «هند»:

- أراك يا «أبا سُفيان» تتجهّز... فإلى أيْن القصدْ؟

فقال، وهُو يشدُّ مِنْطَقَته وحزامه وحمّالة سيْفه:

- إلى «يَثْرب»... إلى «محمد...» فقد آخْتارنِي أصحابي لأكون سفيرهُمْ إلى «محمد» كيْ نتلافي ونتدارك تورُّطنا مع «البكرّيين»، ثم نُجدِّدُ ونوثق عهْد «الحديبية»...

قالت هِنْد:

- ومتى أزْمَعْت الرَّحيل... أراك على عجلٍ...!!

قال «أبو سفان»:

- الآن... وعلى الفور، فالْأَمْر لا يحْتمل التأخير، خصوصاً وأنه قد بلغنا أن «خُزاعة» قد ذهب

وفـدهم إلى «محمد» في «يثـرب»، . . . يستنْجـدونَـهُ ويستنصِرونَهُ . . .

قالت «هِنْد» :

ـ رافقتْـك السلامـة . . . وحذارِ أن تُخْـدَع . . . ، وإنّي أستنْصر الآلهة كيْ تُؤيدك . . .

وخرج «أبو سفيـان» من «مكة» وحيـداً، ليس معه مرافق ولا صاحب، تمْضي به ناقته في الدّرْب الطويل.

كـان يُفكـر كثيـراً في كيفيـة معـالجـة الإشكـال الطارىء، فبمن يبْدأ؟ وكيْف يصِل إلى «محمد»؟.

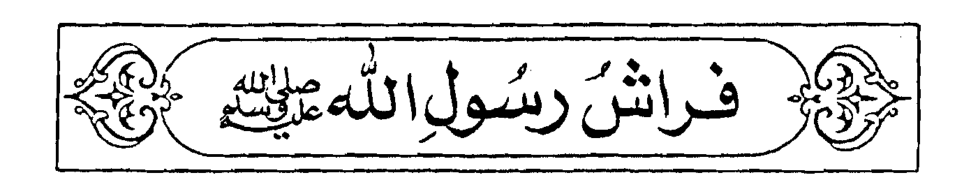
إن الهدْنة ما تزال في نَظرِهِ قائمـة . . . ، وكذلـك عند المسلمين، فدخوله «يثْرب» إذا لا يثير شكاً . . .

وأفْضَلُ السُّبُل أنْ يأْتي بَيْت ٱبنتِهِ «أمّ حبيبـة» . . . التي أسلمت قديماً . . . وهـاجرت إلى الحبشـة . . . ، ومنذ سنوات بعيدةٍ لم يَرَها . . . ، وهي ذات مكانةٍ عند «محمـد»، ومن المـؤكَّـد أنهـا سـوف تستقْبله بشْـوق ولهْفة . . . ، وتُرَحِّب بِـهِ . . . ، وتقدّر مسْعـاه، ولسْوف

تتوسّط بَيْنه وبَيْن «محمد» مما يُسَهّل مأموريَّته، ويساعد على نجاح وساطته.

فلما بلغ «المدينة» كانت الفكرة قد آختمـرت في رأسه، فقصد على الفوْر بَيْت «أمّ حبيبة».





فراشُ رسُولِ الله ﷺ

ـ عِمْتِ صباحاً يا ٱبْنتي . . .

قالها «أبو سُفْيان» لأبنته «أم حبيبة» زوْجة رسُول الله «ﷺ» فأجابتْ فيّ تجاهل وعَدَم اكتراث:

ـ مرْحباً بِك يا أبتاه. . . تفضّل. . .

ودخل «أبو سفيان» بَيْت رسُول الله «ﷺ» وهُويرْجُو أن تكون ابنتُهُ «أمّ حبيبة» وسيطة له، لكن اللقاء الجافّ أثّر في نفسه، واستشعْر الخيْبة، ثم أراد الجلوس. . .، فـأزاحتْ «أمُّ حبيبة» الفـراش من تحْتِـهِ. . .، فتعجَّب وسأل وهو يكادُ يتميز من الغيْظ:

مـاذا فعْلتِ يا ٱبنتي؟ ولمـاذا رفعْت الفـراش من تحْتي؟

أرَغِبْتِ به عَنّي ِ، أم رَغبْتِ بي عَنْهُ؟

فقالت:

إنّـه فراش رسـول الله «ﷺ»، وأنت امـرؤٌ مشـرِكٌ نجِس. . . !!!

فقام «أبو سُفْيان» يُرغي ويُزْبد، ويقول:

ـ والله لقد أصابكِ شرٌّ من بعْدي. . .

فقالت:

بل أصابني كُلُّ الخير. . .

وخرَج من عِنْدها صِفْر اليـدين، خالِيَ الـوِفاض، تُكلّلُهُ الخيبة ويُجلِّله الفشل. . .، وقد فقد تـوازُنه. . . فخطواتُه غيـر ثابتـة. . . وعيْناه زائغتـان. . .، يتلمس الطريق ولكن لا يدري إلى أين؟؟ تلْعب به الوسـاوس وتغرّه الأماني.

إنّـه يريـدُ لقاء «محمـد». . . ولكنـه لا يستـطيـع المواجهة. . . فلا بُدّ من وسيط وشفيع. . . !!

قصد إلى «أبي بكر» فأبى عليْه. . .

ثم جـاء «ٱبْنَ الخـطاب». . .، فعنَّفَـهُ «عُمَـرُ» وَطَرَدَهُ. . .

فأتى «عليّ بن أبي طالب»، وسأله الرَحِم والقُرْبى

أَنْ يتـوسط له عنـد رسُـول الله، وأعْلَمَـهُ مـا جـاءَ من أَجْله. . .

فـآقتـرح عليـه «عليٌّ» أن يقُـوم في النّـاس في المسجد، ويُعْلِن على الملأ ما يُريد. . .

ففعل. .

وعـاد «أبو سفُيـان» إلى مكة، لم يَنَـلْ خيْراً، ولم يأتِ بخيْر، ودَخَل دارَهُ أوّلاً، ليستريح من عناء السّفر، وليستعيد بَعْض هُدوئه، ويُراجع حساباته. . .

فسَألتْه «هِنْد»:

ـ حَدِّثْني يا «أبـا سُفْيان» عمّـا مَرّ بِـك. . . وأراك مُتَجَهمّاً عابساً. . . فكأنّك غير راضٍ عمّا جِئْتَ بِهِ. . .

فأجابَها عما أرادت معرفته، وكانَتْ كلماتُه ونبراتُ صَوْتِهِ ممزوجة بالأَسى والحُزْن، فقـالت «هنـد» فـي غضبٍ وثوْرة، وكانت جريئة عَلَيْه، كثيرة الاحتقار له:

قُبِّحْتَ مِنْ سفير قوْمٍ . . . ، ما زاد «آبنُ أبي طالب»
على أَنْ لعِبَ بِكَ وسَخِرَ مِنْك . . . !

وأُسْدِل السّتارُ على هذا الْفصْل من القصّة!!



حديث النفس؟؟؟

ـ وَيْحك يا «حاطب»[1] !!! إلى متى الانتظار؟

إن الأحْداث تتلاحق، وبسُرْعةٍ مُذْهلة...، والاستْعداد الصامت على قدمٍ وساق، والمؤشرّات كلّها تُوحي بالمفاجاة...

إن صاحِبَك «محمداً» ـ رسُول الله ـ لم يُعْلِنْ شيئاً حتى الساعة عن نِيَّتِهِ في نُصْرَةِ «خُزاعة» وتأْديب «قريش» التي نَقَضَتِ العهْد معه...، ولكنّ كل التّصرّفات تُوحي بأنّ شيْئاً ما يُبَيَّت !!!؟؟

هذا ما قالتْهُ النَّفْس الأَمّارَةُ بالسُّوء لِـ «حاطبٍ» وهُوَ في خلْوتهِ في بَيْتِهِ ذات ليْلة...

كان جالساً في فراشه... قلقاً...، فكلما حاول

(١)هو: حاطب بن أبي بَلْتَعة «رضي الله عنه وغفر له».

الـرُّقاد والنّـوْم عاد إلى جلستِـهِ. . . ثم يسرح بخيـالِـهِ بعيداً. . ، ولا يستقرّ على حالٍ تحْت ضغط الصُّوَر التي كانتْ تمرُّ بذهنِهِ، والأطْياف التي تتراءى لهُ. . .

وكـان وَجْه المـرأة «المكية» التي صـادفها صبـاح اليوم في أحد طرقات «المدينة» ويعـرفها حق المعـرفة أكْثـر الوجـوه لُصُوقـاً بخيالِـهِ. . . لا يُفارقُـهُ ولا يَنْفَكّ عنه. . . ، وَكأنّها منْ خلال وجهها تذكره بـ «مكَة». . «أمّ القرى». .

تذكّره «الكعْبة». . . ، ومراتع الصبا. . . ، والأهل وذوي القـرْبى. . . ، والأَصْحـاب والأحبـاب، فيهيـج شَوْقاً.

ويقول لِنفسه:

ـ وماذا تـريديـن أَنْ أَفْعل؟

فتقول له الأَمارةُ بالسّوء:

ـ هل نسيت العشيرة والأَهْل؟ وهل نسيت ذكريات الصبّا والشبـاب؟ وهـلْ نسيت فنـاء «الكعبـة» ولقـاء الأحبّة؟

ما أظُنُّك قد غفِلْتَ عن هذا كله. . . !! وما أظُنُّك تستهين بــه. . . ! ولَيْس في الأمـر مــا يُسيء إنْ أنْتَ أنْذَرْت «قُرَيْشاً» قبْل حُلول الكـارثة بهم. . . !! عَجِّـل بالكتابة إلَيْهم وحذِّرْهم. . . ولا تُضيِّع الوقْت. . . !!

وآنتفض «حــاطب». . . كأنَّمـا لدغـه ثُعْبـان، ثم قال:

ـ كـلا. . . ثم كلّا. . . ، لن أُقْـدم على أمْـرٍ فيـه تعطيل لخُطَّة النبِّي «ﷺ». . . ، أوْ إفشالها في مفاجـأة «قريش». . . !

قـال ذلك بِصَـوْتٍ عالٍ. . . ، وكـان قد وَقف ثم مضى نَحْو النافذة وفتحها. . . وأَخذ يَسْتَرْوح نسمـات اللّيْل. . . النّاعمـة. . . ، تهبُّ مع السّحَر. . . ، حتى عاد إلَيْه بَعْض هدوئه!!

عنـدئذ عـاوَدَت النّفس الأمارة بـالسّوء حـوارهـا، مستغلّة فـرْصـة الاسـترخـاء التي ألَمَّتْ بِـ «حـاطب» فقالت:

ـ يا «حاطب». . . أَلَيْس المقصود من السرّية في

الخُطَة هو حَقن الدِّماء عن أن تُراق في الحَرَم. . . !!؟ وأنْت لن تَفْعل غيْر هذا. . !! فما بالُك تتردّد!؟

وآستسلم «حاطب» أَخيراً. . .، ووقع في شباك نزْعةِ الهوى ونزْغةِ «إبليس»، فكتب رسالة إلى «قريش» يحذّرهُم فيها. . . ويُنْذِرهم. . .، ويُخْطِرُهُم بالاستعدادات القائمة في «المدينة» لِغزْوهم.

ولقد كان حُسْنُ النِّيّة في التّصرّف هو رائدُ «حاطبٍ» وحافِزه، إذ لم يكن يُضمَرُ شرّاً. . . ولا يُريدُ سُوءاً. . . ولا أذىً. . .، غير أَنه أخْطأ في الاجتهادِ والتَقدير، وَكثيراً ما تعُودُ [الطِّيبَةُ]!! على أصْحابها ومنْ يُحِبُّون بِسُوءِ العاقبة.



بَيْن "حاطبٍ" والمرْأة القُرشيّة ...

كان «حاطب» يعلم مُقام المرأة القرشية «سارة»، ومنزلها في «المدينة» وقد آجتمع إليها من قبْل، وآستمع منها إلى أخبار «مكة» وأحوال الناس فيها، ولعل حديثها العذب قد أثار في قلبه لواعج الشّوق ودواعيَ الذِّكرى والحُبّ. . .

فقصدها حيْث تُقيم خفْيةً، وهو يحمل رسالته إلى «قريش». . . ، يُحاذِرُ أن يراه أحدٌ من النّاس، وكأنّه كان يُحسّ في قرارة نفسه أَنَهُ ـ فِعلاً ـ يرْتكب ذنْباً ويْقترف إثْماً. . . ويأْتي مُنْكراً. . .

وقال لها:

ـ عرفتُ أنّك سوف ترحلين عن المدينة في يومك هذا!!

قالت:

ـ نَعَم... وإني قد هَيَّأْت زادي وراحلتي...

فسألها «حاطب»:

ـ أَلَيْس مَعَكَ من يرافقك في سَفرك هذا؟

قالت:

ـ وما حاجتي إلى ذلك...!!! أنت تَعْرف، وكذلك أكثر الناس، أنّني لا أخْشى شيْئاً، وعندي من القُوّة والشجاعة وحُسْن التدبير ما يعينني ويحميني...، ولقد جِئْتُ من قَبْل إلى «يثْرب» وحيدةً على راحلتي، فما خشيتُ بأْساً ولا رَهَقاً...!

وتبسَّم «حاطب»... مُتَيّقناً أنّ كتابه إلى «قريش» سيكون في يدٍ أمينة، وأنّه سيصل إليْهم في الوقْت المناسب، ثم قال للمرأة وهُوَ يُخْرج الكتاب [الرسالة] من جَيْب قميصه:

ـ هذا كتابُ مِنّي إلى «أبي سفيان»... أَرْجو أنْ تسلّميه له يداً بيد... وآحْرِصي عليه كل

الحِرْص. . . ، فهل أَنْت فاعله؟؟

قال ذلك بصوتٍ خفيضٍ جدّاً، كأَنّه الوشوشة أو الـهمْس، خشـيـة أن يـسْـمـعـه أَحَــد. . . حـتـى الجُدْران. . . ، ولم يكن معهما أَحَدٌ يَسْمع. . .

فقالت المرأة وهي تتسلَم الكتاب:

ـ ما بالك تهْمس. . ؟ هل الْأَمْر جِدّ خطير. . . ؟

قال:

نَعم. . ، وأَكْثر مِمَّا تصوّرين. . .

قالت:

ـ إذاً. . آطْمَئِنَّ. . .

وافترق الاثْنان. . .

عاد «حاطب» إلى دارِهِ، وقامت المرأة القرشية إلى بعض شؤونها تُتَمِّم لوازم رحلتها الطويلة الشاقة. . .

وكلاهما يَعْتَقِدُ أنّه قـد بَلَغَ هَدَفـه، وحقّق مَقْصِدَهُ ولم تعلم المرأة القرشية فحوى الخطاب أو ما يَنْـطوي عليه، ولكنّها بدافِعٍ من الشعور بالمسؤولية، مسؤولية الْأَمانة!!! حَرِصَتْ عليْه غايَةَ الْحِرْص.

تُقدِّرون وتَضْحكُ الأقْدارُ...

وانْطلق «**الزُّبيْر بن العوّام**» و «**عليٌّ بن أبي طالب**» كُلٌّ على فرسِهِ يعْدُو...، يسابقانِ الرِّيح... وينْهبانِ الأَرْض... ويطويان البيْداء الشاسِعة طيّاً...

كان الوقْت مع الظُّهيرة، والشمس في كَبِدِ السّماء، وشعاعها العاموديّ ينصبّ بِقسْوةٍ فوْق الرؤوس...،

ولقد علا الزّبدُ شَدْقَيْ الْفَرَسَيْن، وتبللا بالعرق يقطر من حوافرهما...،

ولا تَسَلْ عن البطلْين: «**الزّبيْر**» و «**عليّ**»... فقد غرقا في أثْوابهما ببحرٍ من العرق...، ولكنهما كانا يَشْتدّانِ في الجَرْيِ ولا يرْحمان نَفْسيهما ولا فرسيْهما...

كانا يريدان اللّحاق بالمرأة الْقُرَشيَّة، خَشْية أَنْ

تُفلت من أيْديهما... ثم صاحَ «الزُّبَيْر»:

ـ أُنْظُر يا «أبا الْحَسَن»... هُناك خيال راكبٍ... أَرْجو أن تكُون صاحِبَتُنا... وبُغْيتُنا..!

فقال «عليّ»:

ـ أَيْن..؟ إنّي لا أَسْتطيع تحقيق النَّظر في شيْء!!! لقد غامتْ عيناي بفِعْل شِدَّة الحرّ... وقسْوة شعاع الشمس... وتسرُّب قطرات العرَق إلى مُقْلَتَيّ..!!

قال «الزّبَيْر» وهُو يُشير بيدِهِ إلى مجموعةٍ من الصُّخور السَّوْداء... تتخلَّلها كُثبان الرّمال...

ـ هُناك... عِنْد الصُّخور... يلُوحُ لي ظِلُّ خيالٍ يتحرَّك ببُطء...، ويتهادى في السَّيْر..



"سارَةُ" في الأسْر...

وأدْرك البطلان: «الزّبَيْر» و «عليّ» المرأة القرشيّة عند مكانٍ يُدْعى «ذي الْحُلَيْفَة» على بُعْدِ أميالٍ من «المدينة» . . .

وما راعها إلا أَنْ أَحاط بها الفارسان، فتوقفتْ ناقتها عن السّيْر، ولبثت في مكانها.

وصرخت في وجْهِهما، وهي تظنهما من الصعاليك قُطّاع الطريق، قَبْل أن يقتربا منها:

ـ ما شأْنكما وما تُريدان. . ؟ ومَنْ أَنتُما؟

قال «الزّبيْر»:

ـ أنا «**الزُّبَيْر بن العَوَّام**» ابن عَمّة رسُول الله وحواريّه، وهذا «عليُّ بن أبي طالب» ابن عمّه وصِهْرُه. . . ألا تعْرفيننا!!؟ أَمْ أنّك تَتجاهلين!!

أمّا شَأْنُنا وحاجتنا. . . فالرسالَةُ التي تَحْملين إلى «قريش». . . !

قالت المرأة:

أَعْرِفكما. . ، ولكني لَسْتُ كما تَتَقَوَّلانِ عليَّ ٱفْتراءً وزوراً. . . ، أَيُّ كتاب ورسالةٍ تَدَّعون. . . ؟؟ لقد كُنْتُ في زيارةٍ خاصةٍ في «يثرب»، فلمّا انقضى الْأَجَل عُدْتُ من حَيْثُ أَتيْت. . . ، وها أنا في طريقي إلى مكّة، أَرْجُو أَنْ تكُفَّا عن أَوْهامكمّا وتُفْسحا لي الطريق، ولا تَعْترضا سبيل ٱمرأة. . !!

فَرَدّ عليْها «عليّ»، وقد هاج وماج:

ـ معاذ الله أن نَفْتري على الناس، وحاش لله تعالى أن يقول غير الحقّ، وحاش لرسُولِهِ «ﷺ» أَنْ يكْذب!!!

وأضاف «الزُّبَيْر»:

ـ أنيخي راحلتك وتَرَجَّلي عَنْها. . ، إِنّا لا نُريدُك بِسُوء. . . ، كما أننا لا نُريد حواراً طويلاً، وتَضييعاً لِلوقْت أو تحايُلاً!!!

لا بُدّ من تفتيش رَحْلِكِ.

إطْمَـأنت المـرأةُ القـرشيّـة بعْض الشيْء. . .، وأناختْ راحِلتها، ثم تـولت إلى ظِل صخـرة تستريـح عندها. . .

وتولَى «عليَّ» الْبَحْث والتَنقيب عن الرسالة، وقام «الزّبيْر» قريباً من المرأةِ يحْرسها، ويُراقبُها. . .

لقـد أخرج «عليٌّ» كـل ما في الـرَّحْل ونَثَـرَهُ فوق الأرْض، وفتـح كـل صُـرَّة. . .، ثمّ فـكّ ربــاط قَتَبِ الرّاحلة، وقلبه ظَهْـراً لِبطْنٍ. . ودقّق في كـل شيء. . ولكنّه لم يعثر على الكتاب. . .

وناداه «الزُبَيْر»:

ـ هاه. . . ألم تجد شيئاً يا «أبا الحسن»؟

قال:

ـ كلاّ. . . وَإني لَفي شَكٍ وريبة. . . وحَيْرة. . .

قال «الزُّبَيْر»:

ـ عفا الله عَنك يـا أخي. . .، وهل تَـرْتابُ فيمـا أنبأنا به الصادق الأَمين، ثم كلّفنا بالمهمّة!!!

قال «علي»:

ـ معـاذ الله... وأَسْتَغْفـر الله... لقـد فَهِمْتَني خَطأً...، فما قصَدْتُ بالشَّك والريبة مقالة رَسُول الله «ﷺ»...، ولكن في الجهـة التي تُخْفي فيهـا هـذه المرأة الكتاب!!!

ثم تَقَـدَّم «عليٌّ» منها، وجَـرَّد سيْفـه من غِمْـدِهِ، ولوَّح به في وَجْهها وقال:

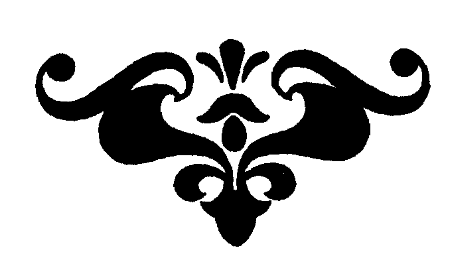
ـ لَئِن لم تَصْـدُقينا الخبـر وتُخـرجي الكتـاب من مكْمَنِهِ لأَضْرِبَنَّك بسيْفي هذا ضَرْبةً تفْصـل رأسك عن جَسَدك، وأَجْعَلُك عِبْرةً لمَنْ يَعْتَبر!!!

أما «الزُّبَيْر» فإنَّه هُوَ الآخر إسْتَلّ سَيْفه أيْضاً...
فلمّـا رأت المـرأةُ من البـطليْن الجـدّيَّـة... وتصوَّرت سُوءَ المنْقَلَب، أذْعَنَتْ...،

وكـانَتْ من قبْل، وهي في ظِـلّ الصّخْـرة تـرقب «عليّاً» وهو يفتِّشُ في رحْلها ويَنْشُر متاعها، تُثرثر بكلامٍ كثير، فيه لوْم وعتاب، وتؤاخذهُ بما يفعل، وتُصِرُّ على

الإنكار، وتدّعي البراءة...

أما الآن، وقد برز الموْت أمام عيْنيْها يلمع مع نَصْل السّلاح...، اسْتَسْلَمَتْ... وتخاذَلَتْ.



افتضاحُ السِّرِّ...

قالت المرْأة لـ «عليٍّ» و «الزُّبَيْر» :

ـ تَنَحّيا عَنِّي قليلاً . . .

ففعلا ، ولكن لم تَغْفَل أعْيُنهما عنها .

وآمتدَّت يداها إلى رَأْسِها ، فنزَعَتْ غطاءَهُ ، وحَلَّتْ إحْدى ضفائر شَعْرها ، وأَخْرَجَتِ الكتاب ، وناولتهما إيّاه . . .

فقال «عليٌّ» و «الزَّبَيْر» معاً ، بلسانٍ واحدٍ :

ـ صَدَق الله وَرَسُوله . . .



العــوْدة...

واْلْتَفَت «الزُّبَيْر» إلى المرأة القرشيّة وقال لها:

ـ أما أَنْتِ فلم يَعد بنا حاجة إلَيْك. . . وتَستطيعين الآن أن تَمْضي في سَبِيلك إلى غايتك، ولن نَحْجزك. . .

فانطَلَقَتْ، بعد أن سَوَّيا لها قَتَب راحلتها كما كان، وأعادا إليْها متاعها وحوائجها في رَحْلها. . .

ثُمّ كرّا راجعيْن إلى «المدينة» ومَعَهما الكتاب.

ودخلا على رسُول الله «ﷺ» في المسْجد، ودفعا إليه الأمانة. . .، وقد تهلل وَجْهاهُما بالْبِشْر لما حقّقاهُ من طلبه «عليه الصلاة والسلام». . . ورغْبته.

«حاطبٌ» و... النِّفاق!

كان «حاطب» رضي الله عنه، وغَفَر له ـ قد ٱلْتَزَم دارَهُ طيلة ذلك الْيَوْمِ، لا يَدْري ما الّذي حَبَسَهُ عن الخروج إلى الناس!!!، هل كان يَشْعُرُ في قرارَةِ نَفْسِهِ بأَنَّه قد ٱرتكب ذَنْباً بحق نَفْسِهِ وإيمانه وٱجْترأ على الله ورسُوله..؟؟ أم أَنَّه كان يُريدُ الاطْمئنان على سلامة المرأة القرشيّة وما تَحْمل؟؟

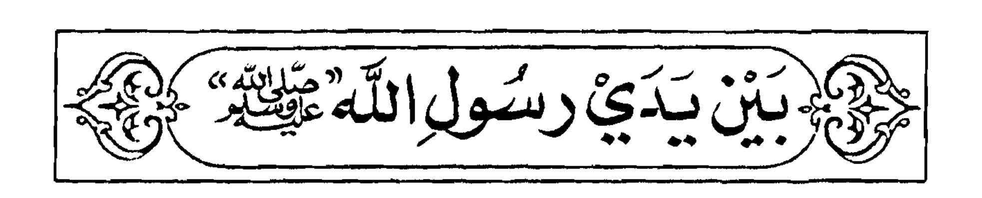
أما الحقُّ، فإِنَّه ـ رضي الله عَنْه ـ لم يكُن ليميل إلى «قريْش» بدافع من بقايا شرْك في النَّفْس، أو رواسب جاهليّة، أو تأثُّرٍ بنفاق...!!

ولوْ قُدّر لأحدٍ مِن الناس أن يرى «حاطباً» في دارِهِ طيلة يوميْه، السابق واللاحق، لرآهُ على غير ما عَهِدَه فيه وعرفه عَنْه؛ من صِدْق وإيمان، وقرْبٍ من رسُول الله «ﷺ» وثقةٍ كبيرة...

كـان في يـومـيْـه هـذيْن: أشْبـه بـالمْعـزول. . . المهْزوز. . .، لا يستقرّ على حال، ولا يطمئن لهُ بال، بادِيَ الوجُـوم والاضطراب. . .، يَخْجـل من مواجهـة النّاس. . .

إنّه ـ ولا شَكّ ـ الشعُور بالذَّنْب، وتأْنيب الضمّير.





بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ «صلى الله عليه وسلم»

وبَيْنما «حاطِبٌ» في عُزلتِهِ، قابع في رُكْن من بَيْتِهِ، جاءَه من يَنْتَشِلُهُ من قاعِ خَوْفِهِ وخَجَلِهِ، قُرِعَ الباب، فقام ليفْتح، يُقدِّم رِجْلاً ويُؤَخِّر أُخرى، وحين فَتَح، وواجه الزائر يَسْتدعيه إلى لقاء رسُول الله «ﷺ»، كاد يسقُطُ أرْضاً، وأحسَّ بِدُوارٍ شديد، وعَصَفَتْ بِهِ الظّنون، وتيقَّن آنكشاف ما حاوَل كتمانه وإخفاءَه. . .

وتصوُّر العتاب. . . والْعِقاب. . .

فازداد همّاً وغماً!!

ولم يكُن بُدٌّ من اللِّقاء!!

فلمّا حَضَرَ بَيْن يَدَيْ رسول الله «ﷺ» في المسْجد، تَعثَّرَت به الخطوات. . .، ولم تعُدْ قدماهُ تَقْويانِ على حَمْلِهِ. . .

وٱشْتَدَّ به الجزعُ حِينَ أَشاحَ النبيّ «عليه الصلاة والسلام» عنه بوجْهِهِ، وكذلك رُؤيَةُ كبار الصحَّابة والشرّر يتطاير من عُيُونهم...

كما أَحَسَّ بضآلةِ حجْمِهِ، وتصاغُرِه...

إنها لحظاتٌ مريرة قاسية، وتَجْربة صعَبة، لم يُواجه «حاطبٌ» مثلها في حياتِهِ أَبَداً.

وظَلَّ واقفاً... يَشْعُرُ كأن الْأَرض تميد بِهِ في زلْزالٍ عنيف... حتى سألَهُ النبيُّ «ﷺ»:

ـ ما الّذي حَمَلك على ما فَعَلْت يا «حاطب»؟؟

ونَزَل سُؤال رسُول الله «ﷺ» على قلْب «حاطب» بَرْداً وسلاماً، إذْ أحَسَّ من صيغة السُّؤال بأنّه عتابٌ لطيف...،

فَشَرَح السَّبب، وبَيَّن طهارة الْقَصد، وصِدْق النيّة، وصفاء الغَرض، وأَشْهَد الله تعالى، على ما يَقُول...

قال «حاطب»:

ـ يا رسُول الله، أما والله إنّني لمؤمن بالله ورسُوله،

مـا غيَّـرْت ولا بـدَّلْت، ولكني كنت آمْرءاً ليس لي في القوْم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بَيْن أظهرهم وَلَدٌ وأَهْل. . . فصانعْتُهُم(١) عَلَيْهم. . .



(١) المصانعة: الملاطفة والمداراة.

"حاطبٌ" مِنْ أهْل "بَدْر"...

كان سيّدنا «عمر» جالساً بإزاء رسُول الله «ﷺ» لا يتكلَّم بكلمة، ولكنه كـان يصرّ على أسْنـانه، وتَقْـدحُ عيْناهُ بالشرَّر، ويكادُ يَتَّميز من الْغَيْظ. . .

خُصوصاً وهُو يَسْمَعُ إلى ردّ «حاطب» وتَبْريـره لما فعل. . .

فلمّا آنْتهى، وقفـ «عمر» ويَدُهُ على مَقْبض سَيْفِهِ، ثم قال:

ـ دَعْني يـا رسُول الله أضْـرِبُ عُنُق «حاطب». . . فإنّه قد نافَقَ!!!

فآلْتَفَتَ إليه رسُول الله «ﷺ» وأجابَهُ:

ـ ما يدْريك يا «عُمر»؟!!

لعلَّ الله اطلع على أَهْل «بَدْر» فقال لهم افْعَلُوا ما شئْتم فقد غفرتُ لكم!!

وتطامنت[1] ثَوْرة «عمر»، وهدَأ. . . ، فَجَلَس.

وعفا رسُول الله «ﷺ» عن زلّة «حاطب» وسامَحَهُ، بناءَعلى حُسْن نِيّتِهِ وسلامة يقينِهِ.

وهكذا ـ عزيزي القارىء ـ انكشف [السِّرُّ تَحْت الشَّعْر]، بوَحْي من السَّماء، وذَهَبت وساوس الشَّيْطانِ أَدْراج الرياح؛ وعاد «حاطب» إلى حظيرة الإِيمان الصافي.



(١) تطامنت: خَفَّت وتواضَعَتْ.

ولا يتوقف انكشاف السر عند هذا الحَدّ، فقد كان له نتائج ومعقّبات. . . ونعودُ إلى المرأة القُرشية. . .

لقد خلّى سبيلها «عليّ» و «الزُّبَيْر»، وأطلقا سراحها، فمضتْ في طريقها إلى «مكّة». . .، وهي لا تُصَدِّق أنَّها نَجَتْ من الموْت. . . .

ولمّا بلغتْها بعد أيْامٍ ، كان أوّل ما فَعَلَتْهُ أنْ قَصَدَت دار «أبي سُفْيان»، من غَيْر أن تعرِّج على سَكَنِها. . .

قال «أبُو سُفْيان»» بَعْد أن رَوَتْ له قِصتّها وما جرى لها من أحداث:

ـ وماذا كان في الكتاب من خَبَر؟

قالت:

ـ لا أدْري يا سيد قريْش. . . سوى أنني أحْسسْتُ وشَعَرْتُ بأهمّيته من خلال ملاحقة «الزُّبيْر» و «ابن أبي

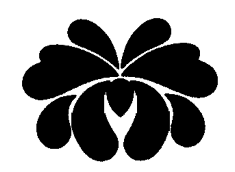
طالب» لي . . ، واهتمامهما الشّديد بالحصول عليه، ولقد أخْبَرْتُكَ أنّهما هَدّداني بالْقَتْل . . . ، فآضْطُرِرْتَ إلى دفْعِهِ إلَيْهما . . .

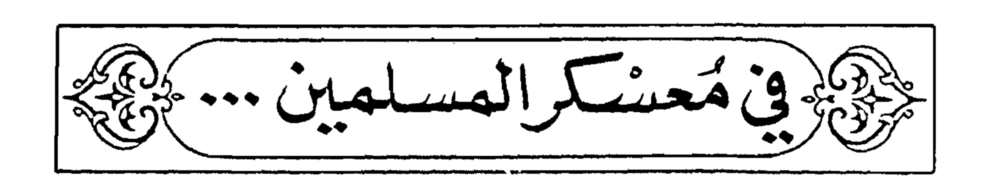
قال «أبو سُفْيان» وهَوَ يُضْربُ كفاً بِكَفّ:

ـ ما زِدتْني يا آمرأة إلاّ حَيْرةً وبلْبلة . . .

لَقَدْ عُمّيَتْ عَلَيْنا كُلُّ أَخْبار «محمد»، فلا نَدْري ما هُوَ صانِع . . . !؟

انْصَرفي عَنّي، وشكْراً لَكِ؛ ولْيَكُنْ بعد ذلك ما يكُون . . .





في مُعسكر المسلمين ...

وما هي إلّا أيامٌ قلائل حتى كان خُروجُ رسُول الله «ﷺ» بجيْشٍ من المسلمين بلغ تعــدادُه عشرة آلاف مُقاتل، بآتجاه «مكّة» . . .

ولمّا أَصْبَحَ قاب قوْسيْن أوْ أَدْنى منهـا، عِنْد «مـرّ الـظّهْـران» ، كـان «أبـو سُفيـان» قـد خَـرَجَ يتسقّط الْأَخبــار. . . فَـوَقَــعَ في أيْـدي المسلمين، وحَمَـله «العبّاسُ بن عبد المطَّلب» ـ عم النبي «ﷺ» إلى رسُول الله، في خَيْمتِهِ، وهناك أعْلَنَ إسْلامَهُ. . .

ثُمّ آنْهارتْ كُل مقاومةٍ لـ «قريش» ودَخَل رسُول الله «ﷺ» «مكّة» فاتحاً. . .

«مكَّة» التي أُخْرج منها قسْراً، مُهاجراً. . . ، آسفاً على فـراقها، قـد عـاد إليهـامنتصـراً ليحـطِّم الْأَوثـان

والأصنـام، ولِتَرتفـع من فوق سَـطْح الكعبـة نـداءات التكبير والتّوحيد. . . ،

وكـان [السِّرُّ تَحْتَ الشّعْـر] أحدَ مُقـدّمات الفتْـح العظيم، ودخول الناس في دين الله أفْواجاً.

وإلى اللقاء يا ولدي العزيز مع :

[سرّ التُّفّاحة]





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com